كتاب البينات

« وهو مجموع مقالات في الدين والاجتماع والادب والتاريخ ، كُتبت »
« ونشرت في أزمنة متفاوتة ، مبتدئةً منذ عام (٩٠٦) للميلاد ، والمطبوع »
« منه الآن الجزء الاول فقط ، عدد صفحاته (٢٢٨) »

— لمؤلفه —

« الاستاذ المتبحر الجهبذ العبقري الشيخ عبد القادر المغربي الشهير »

(اني بصرتُ الى العليا فلم ارها تنال الا على جسر من التعب)

كل نزعةٍ — نحاول بها الطفرة او العروج الى مستوى الامم البالغة الشأو البعيد من الرقيّ الاجتماعي المؤدي الى استجماع القوتين المادية والمعنوية وتوفرهما مكافحةً لعوارض الحياة والتماسًا وتحصيلاً لرفه العيش ودعته وسعادته — انما هي ايم الله باطلة كالظل خداعة كالسراب ما لم تخلص العقائد والاخلاق والتقاليد من أدران تسربت اليها وامتزجت بها في عصور الظلمات المنتجة لتاديّ الغباوة والجهل ثم تصفو من شوائبها وأوضارها بانواع من جهود نوابغ المفكرين وأساطين أهل الرأي بحيث يجلونها للناس نقيةً وضيئة كمرآة الحسناء او وجهها . وذلك انما يستتب بوضع مصنفات من هذا الضرب واضحة المنهاج ناصعة الدليل قويمة الحجة تنسج على أساليب محكمة التبويب والترتيب سهلة التراكيب تجمع بين الانسجام وصفاء الديباجة وصدق البيان حيثما تشربها عقول المطالعين من العوام شربًا كما يشربون الماء النمير في الهجير بعد الظمإ الكثير فتجري مفاهيمها في مداركهم وتتغلغل متسربة الى أعماق شواعرهم كتسرب ذلك الماء الى أوردتهم ممازجةً كريات دمائهم فتزيل فضولها وتعدّل قوامها وتطهر عناصرها الى حد ان يعيد اليها صحتها واعتدالها اللذين لن تتوفر أسباب الحياة وتستقيم نواميس كيانها ومعدات بقائها الأ بها .

هذا هو اليوم داء الشرق العضال — اي محاولة تحدي الامم الراقية بسطةً ومنعةً وثروةً وقوة قبل ان نمهد لها الطريق بتهذيب النفس وتثقيف الاخلاق وترقية الوجدانات وتحرير الضمائر من غلبة الاهواء والتقاليد — أجل ثم أجل هذا هو المرض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المزمن الذي قلّ من نطس الأساة الذين نسميهم مصابيح الأنام وأمراء الاقلام من تفطن له ونشط الى معالجته داخلاً البيوت من أبوابها ناشراً للملاء من نتاج اختباره العلميّ والعمليّ ما يفيض على ظلمات المدارك نوراً يجلي تلكم الغياهب المتراكب بعضها فوق بعض بحيث كاد يصبح فينا الرشد عمهاً والادراك بلهاً والتروي هوساً وتهوراً وقد أزمنت أدواء أدمغتنا هذه حتى صرنا ننظر الخطأ صواباً والضلال هداية والفساد صلاحاً فانطبق علينا القول « لهم عيون ولا يبصرون وقلوب ولا يفقهون » مع علمنا بما جاء في الحديث « محاسن الاخلاق كنوز الارزاق » وما أجمعت عليه الحكماء « أدب النفس قبل أدب الدرس » وما نطقت به حكمة الشعراء .

(وانما الأمم الاخلاق ما بقيت حتى اذا ذهبت أخلاقهم ذهبوا)

أقول هذا والفؤاد دام والجوانح تتميز ولكن ما الحيلة وقد ندر فينا من أوتي — في هذا المطلب — علماً راسخاً وجناناً جريئاً يقتحم بهما أمثال هذه المعضلات الجسام ومن دون المجاهرة بما هناك حوائل وعقبات يقيمها استبداد البغاة من الحاكمين وجمود العتاة من رجال الدين وضلال الغواة من العوام الذين يرون كل جديد بدعة وكل إصلاح خدعة وكل رأي يغاير ما استقر في اذهانهم فرية بل إلحاداً وتجديفاً يدفعونه بالاوصال والمناكب و يناصبون أصحابه العداء بكل ما أتاهم الله من حول وطول حتى تتقاعس هم الناهضين وتنكص عزائم المُقدمين و يخبو لهيب تلكم الجمرات المتقدة في صدور ذوي المواهب فيربعون على ظلهم و يعودون على اعقابهم راضين من الغنيمة بالهزيمة قانعين من الفوز بالخيبة ضنّاً بكرامتهم ان تمسّ او بحياتهم ان تحترم فيصبحون عبرةً وقدوة بل عظةً لمن حدثته نفسه التوّاقة الى التحدّي بهم والسير على وتيرتهم فلا يرى خير من السكوت على مضض والصبر على بلاء الى ان يقضي الله امره وهو خير الحاكمين .

ولقد صحبت — كما قال الاستاذ صاحب البينات — العالمين الكبيرين جمال الدين الافغاني وخريجه النابغة محمد عبده — زمناً غير يسير في مصر القاهرة وانا في مستهل الشباب وساجلتهما وسبرت غورهما مليّاً بحيث تمثل لي ما كان يثور في فوآديهما الذكيين من البراكين الحامية لا قدان الذرائع التي تتيح لهما ولمن نشأ على شاكلتهما من أولي العزم وقف

العمر — وان طال — على الدأب لكشف هذه الغمة عن شواعر الامة ولقد درجا رحمهما الله — بعد حبوط السعي واخفاق العمل — في سبيل من مضوا ودرج غيرهما من افذاذ مريديهما وافراد مقتفي آثارهما وفي صدر كل منهم حزازات اشد وانكى مما عند الفرآء من حشى وهكذا انقضى القرن الغابر والدآء عياء . والمساعي هباء . وليس من نجع وسائله ارتياداً للشفاء .

اما الآن وقد خفت وطأة حكام الشرق على اهل التصنيف والتأليف واستعدت العقول بعض الاستعداد لقبول الجديد من الآراء اذا كان على سداد وصواب وسكتت ألسن انصار الجمود عن المكابرة والمهاترة ولو بعض السكوت فقد بدأت الخواطر الحكيمة — وان ندرت — ان تنشط من عقالها وبصارح اصحابها الناس انشاء ومخاطبة وتأليفاً ومساجلة فيما هنالك من عوائق الرقي مشفوعاً ببيان حقائق العلة واسباب النجاة منها بلسان زلق ووجدان نزيه ونفحات علم ناضج وفي طليعة هؤلاء الاعلام رصيفنا « المغربي » الذي له بكتابه « البينات » وغيره جولات ووقفات في هذا المعترك تبشر بحسن المصير وسلامة العقبى وسيقتدي به وبهم غيرهم ممن أوتوا الاخلاص في النية والاجادة في العمل ممن يصدق بهم الاثر القائل : « أصحابي كالنجوم بايهم اقتديتم اهتديتم » وابى الله الا ان يكون مناعاً للشر هادياً للخير مرشداً الى الصواب مؤيداً لمن يسعى اليها بقدم ثابتة غير وجل ولا هياب .

والجزء الذي دعيت الى نقده من الكتاب طلي السبك متينه نقي الالفاظ فصيحها[1] جامع مع حسن السبك صدق المشاهد ولطف الاستدلال . وفيه فصول واماني « كالزواج والحب . والاصلاح الاسلامي . ووسائل الدعوة الى الاسلام . وفتاة انكليزية تصف المحمل والازهر واستعمال اهل الشيعة السلاح يوم عاشوراء . وعبادة القبور » احسبها خير علاج لمرضى العقول المتشيعة لعادات وتقليدات ما انزل الله بها

(١) قد اتخذ الاستاذ — استعماله (الفسطان) بدل الحلة او البزة او الثوب و(الترابيزات) و(الطاولات) مرادفين للمناضد وابداعه قصة (البارون والبارونة) معربة دون تنبيه — عوذات بقي بها كتابه القيم من العين وبرهاناً على ان لله وحده العصمة والكمال في كل حال .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من سلطان . فجدير بي وبكل منفكر نزّاع للخير ان نحض الامة جمعاء رجالها ونساءها على السواء الى اقتناء (البينات) وتكرار تلاوته اقتباساً لحكمةٍ فانها من فواتح الكنوز جزي الله مؤلفه خير الجزاء .

احد اعضاء المجمع العلمي العربي في دمشق

سليم عنحوري